اللحظات الأخيرة

انتصار دردير*

لم أجرؤ أن أكتب خبرا واحدا عنه طوال فترة مرضه، كنت أترقب تطور حالته منذ أصيب بجلطة مفاجئة، رأيت تحسنا طفيفا طرأ عليه حين أفاق وغادر الرعاية المركزة، كانوا قد أجلسوه علي مقعد وكانت ابتسامته هي أكثر ما يميز وجهه، صافحته ولم أشأ أن أجهده بالكلام فقالت لي زوجته الفنانة القديرة سميرة عبد العزيز تكلمي معه حتي ينشط ذهنه، كان يستمع دون أن يتكلم لكنه يهز رأسه بالإيجاب وأحاول أن أستنطقه فلا يبدو كلامه مفهوما، فقد أثرت الجلطة علي قدرته علي الكلام واكتشف هو حقيقة اصابته بعد أن أفاق وأخذ يحرك يده اليمني فتسقط منه، سالت دموع محفوظ عبد الرحمن لأول مرة، هنا كانت صدمته وانتكاسته التي أعادته لغرفة الرعاية المركزة ليصمت طويلا وهو قيد أجهزة التنفس والمحاليل التي تحاصر وجهه، كانت رفيقته العظيمة تقف بجواره ساعات النهار والليل ويدها في يده وعينها لا تفارق الشاشة التي توضح حالة النبض فإذا بها تصرخ وتنادي الأطباء لهبوط

---

* كاتبة صحفية وقاصة بأخبار اليوم، نشر بأخبار اليوم، ٢٦ أغسطس ٢٠١٧.

obeikan.com

درجة النبض ويطمئنونها لكن مخاوفها تزداد وتقول له وسط دموعها» اوعي تسيبني يا محفوظ، ما اتفقناش علي كده»، فأشعر بوجع ما بعده وجع وأدعو الله أن يلطف به وبها.

من الأردن جاء صديقه الأقرب إليه، المخرج الفلسطيني عباس أرناؤوط ، مذعورا مما حدث، ووقف ممسكا بيده ساعات طوال ويتهلل وجهه فرحا، « محفوظ يشعر بي، لقد ضغط علي يدي وأنا أحدثه» ويسكننا جميعا الأمل من جديد، لكن غيبوبته تطول ويطول صمته بما لا يليق بهذا الحكاء الجميل؛ فحكاياته تتدفق في سلاسة عن مواقف وشخصيات وذكريات فتحيلك إلي متلق فلا تستطيع أن توقف استرساله حتي لا يفوتك شيئ من فيض هذا المبدع الكبير.

لكن حالته تضطرب ولا يستطيع بلع الطعام، ويجري الأطباء جراحة له لإدخال أنبوب عن طريق المعدة، ويبقي لأيام علي جهاز التنفس الصناعي. وفي لحظة تتوقف الأجهزة وتصعد روحه إلي بارئها ويصبح خبرا لا أستطيع كتابته فمساحة الاقتراب معه أكبر من أن تحيله إلي مجرد خبر. رحل محفوظ عبد الرحمن. رحمه الله. وفقدت الدراما العربية برحيله آخر حراسها الكبار، لكن لوعة الفقد وفراغ الحياة تسكن قلب كل من اقترب منه وعرفه كاتبا مبدعا وانسانا رائعا وأنا منهم.